انتظار ..

قصة بقلم ابتهاج الاوقاتي

(الى امي التي لم اعرفها قط والتي اريد ان اذهب اليها)

فتحت عيني للنور وترعرعت بين اخوة محبين واب عجوز لا هم له في هذه الدنيا سوى توفير اسباب الراحة لنا . ابدا لم اشاهد وجها انثويا ينحني علي ليضمني الى صدره كما كنت اسمع في القصص ، ما عدا وجه « فطمه خان » ، مربيتنا الغريبة بشعرها المسترسل دائما على وجهها وعينيها الحالمتين ورأسها المشحون بالقصص . لقد ملات ذهني بخرافاتها واساطيرها العجيبة الغريبة ، ولكم اضحكتني مع ابطالها العابثين ، ولكم ولكم ابكتني مع ابطالها التعيسين حتى كان يخيل لي ، في معظم الاحيان ، انني اعيش معهم واحيا مغامراتهم .

اتريدون ان احدثكم عن بعضها ؟ انها عديدة وساقص عليكم واحدة ما زلت اذكرها بحذافيرها لانها جعلتني اعيش ساعات سوف يبقى ذكرها معي حتى الموت .

كان ذلك قبل عيد الكبير ، او كما كانت تدعوه « فطمة خان » قبل « بيرم » بيوم واحد ، عندما ناديتها لاسمع منها قصة المساء التي كانت تسلمني الى عالم الكرى حيث تبدأ ، خلال احلام الطفولة ، قصص جديدة طالما كنت انا بطلتها . فهرولت الي ، كعادتها ، هاشه باشه ، لسنوح الفرصة لها لاطلاق خيالها المجنون . وما كادت تستقر على الكرسي ، امام سريري ، حتى بدأت بصوتها الجاد :

« كانت هناك اميرة جميلة جدا لم ير النور اجمل منها تزوجها ابن ملك الملوك فانجبت له ابنة حلوة مثلها ثم اصيبت بحمى قضت عليها رغم فنون السحرة وعقاقير الحكماء ، وتركت ابنتها وحيدة مع ابيها الحزين . لكن روح الام ـ كروح الامهات كلهن ـ كانت تزور البيت في ليالي الاعياد فتسهر على طفلتها وتحضر لها ثياب العيد وتبقى معها حتى مطلع الفجر » .

ما كادت « فطمة خان » تنطق بكلماتها هذه حتى وثبت من سريري وسألتها بلهفة :

ـ وهل تفعل الامهات كلهن ذلك ؟

ـ كلهن

ـ ومن اين يدخلن البيوت ؟

ـ من الباب اذا كان مفتوحا او من الشباك .

ـ اانت متأكدة من ذلك ؟

ـ طبعا ، طبعا ! هيا . عمي مساء !

جررت الغطاء حتى راسي واغمضت عيني للنوم ، لكنني ، في تلك الليلة ، لم استسلم له الا بعد مدة طويلة طويلة ...

طلع النهار فلم العب طيلة ذلك اليوم ، بل لجأت الى مخبأي تحت منضدة الكتابة ، افكر في امور وامور كانت تعج في رأسي الصغير الذي كان عاجزا عن تدبيرها .

اخيرا اتى المساء فاويت الى فراشي قلقة مضطربة ، وبقيت كذلك حتى هجع اهل البيت كلهم . عند ذلك تسللت حافية ، على مهل ، واتجهت نحو الباب . عبثا حاولت فتحه ، فالسقاط عال جدا . كم مددت ذراعي الصغيرة بكل ما عندي من قوة ، مرات عديدة ، محاولة الوصول اليه ! وعندما تولاني اليأس وسقطت يدي الكليلة الى جنبي ، نظرت الى السقاط وشعرت انه بعيد عني بعد النجوم ...

اتجهت نحو نافذة يربض تحتها مقعد طويل فصعدت عليه وفتحتها . تنفست الصعداء : « سوف تدخل امي وسوف اتمسك بثوبها ولن ادعها تذهب ثانية ! » لكنني لم اكد استقر حتى لمحت النافذة الاخرى مفتوحة ايضا فانهلع قلبي : « ربما دخلت من احدى هذه النوافذ الاخرى المفتوحة وانا قابعة هنا ، تحت هذه ، فتأتي وتذهب دون ان اراها ! » نهضت واقفة بقلب مضطرب وسرت اتعثر باشياء لم اتبينها تماما في تلك الظلمة التي كانت تلف البيت كله . درت باحثة عن كل النوافذ المفتوحة فاغلقتها بيدين مرتعشتين . لكم كنت خائفة ! كل شيء بدا لي غريبا عني ، موحشا : السكون ، حتى الاشياء التي الفتها واحببتها تنكرت لي تنكرا تاما ! كنت تائهة ووحيدة وسط هذا الجو البارد برود الموت، تخاذلت وفكرت جبنا بالعودة الى سريري الامن الدافيء . لكن سرعان ما اتجه فكري المضطرب المبعثر نحو امي ، امي التي اريدها مهما كلفني ذلك . هززت رأسي الصغير المتعب واتجهت باصرار نحو نافذتي المفتوحة وجلست بقربها ، على الارض ، وعيناي معلقتان عليها ، وانتظرت ...

وفجأة خفق قلبي بشدة ، لقد سمعت هسهسة من الخارج ، انها امي بدون شك ! نهضت وكل كياني يرتجف من فرح اللقاء ونظرت ، ونظرت وانتظرت . لم ار شيئا البتة ، لم يدخل احد . مددت راسي من خلال النافذة ، من يقول ، ربما كانت هي ! وسمعت الهسهسة مرة اخرى، فالتفت بلهفة مؤلمة نحو مصدرها : كانت حفيف اوراق الشجر ، حفيف اوراق فقط ، وليس ثمة شيء اخر ! غار فؤادي بصدري وشعرت كانني اختنق ولاحت لي الاغصان المتحركة كاشباح « فطمة خان » التي تهيم في الليالي الباردة .

رجعت الى مكاني انتظر ثانية . لقد بدأت اوصالي كلها ترتجف من البرد واسناني تصطك فتكورت على نفسي وضممت قدمي الحافيتين المجمدتين باذيال ثوبي الطويل المرتعشتين تحت ابطي . يا لهذا الزمهرير الدافق من النافذة والذي كان يلفح وجهي الملتهب بسياطه ! وبدأ النعاس يثقل اجفاني فقاومته بكل ما بقي لدي من قوتي الطفلة ، وكم فركت عيني كي اطرد تلك الضبابة اللعينة التي اخذت تلف كل ما يحيطني . لسوف تأتي ، هي ، وسألقي براسي المحموم على صدرها وانام في دفئه ، سوف تأتي ..

*

في الفجر ، ، عندما نهض الشيخ ليتوضأ ويؤدي فريضة الصلاة هاله ان يرى ابنته غافية على الارض الجرداء ، ملفوفة حول نفسها ، بينما كانت الريح الباردة تبعثر شعرها الاسود الذي غطى وجهها .

ها قد مضت سنوات طويلة ، طويلة ، واصبحت اما ، وللان ، في ليالي الاعياد ، تتجه عيناي بحركة لا شعورية نحو النافذة ، واحس في اعماق اعماقي انني ما زلت انتظر ..

بغداد

ابتهاج احمد الاوقاتي